فِي البيوتِ التي تُغلَقُ أبوابُها على حكاياتٍ موجعةٍ، يعيشُ بعضُ الأطفالِ فصولًا من الألمِ بصمتٍ ...

كانتْ سمرُ واحدةً من هؤلاءِ؛ تحاولُ الاحتماءَ بظلِّ والدتِها المرهقِ قبل رحيلِها، والترويحَ عن قلبِها، بينما يتسعُ بيتُها حضور امرأةٍ لم تكنْ يومًا أمًا، دخلتْ حياتَهم دون موافقةِ أحدٍ، وكانتْ بدايةَ حكايةٍ طويلةٍ من الوجعِ.

من فقدانِ الأمِّ إلى سقوطِ العدالةِ

فِي البيوتِ التي تُغلَقُ أبوابُها على حكاياتٍ موجعةٍ، يعيشُ بعضُ الأطفالِ فصولًا من الألمِ بصمتٍ، يصنعونَ قوتَهم من الدمعِ، ويحاولونَ خلقَ لحظةِ فرحٍ في عالمٍ لا يمنحُهم إلا مزيدًا من القسوةِ، كانتْ سمرُ واحدةً من هؤلاءِ؛ تحاولُ الاحتماءَ بظلِّ والدتِها المرهقِ قبل رحيلِها، والترويحَ عن قلبِها، بينما يتسعُ بيتُها حضور امرأةٍ لم تكنْ يومًا أمًا، دخلتْ حياتَهم دون موافقةِ أحدٍ، وكانتْ بدايةَ حكايةٍ طويلةٍ من الوجعِ.

تعيشُ الآنسةُ سمرُ البالغةُ من العمرِ ٢٣ عامًا، في منطقةِ تلِّ الهوى غربَ مدينةِ غزةَ مع إخوتِها الخمسةِ، أصغرُهم طفلٌ مريضٌ بسكريِّ الدمِ ويبلغُ ١٢ عامًا، ورغم صغرِ سنِّها، تحملتْ مسؤولياتٍ أكبرَ من طاقَتِها منذ سنواتٍ، في ظلِّ معاملةٍ قاسيةٍ من زوجةِ أبيها، التي دخلتْ حياتَهم دون موافقةِ أحدٍ، ووقعتْ ضحيتَها منذ لحظةِ دخولِها البيتِ، وأصبحتْ هدفًا لأسوأِ أنواعِ الإيذاءِ اللفظيِّ والنفسيِّ.

وقالتْ بصوتٍ مخنوقٍ: "تزوجَها والدي دون موافقةٍ من أحدٍ، وفرضَها علينا، ومن اللحظةِ الأولى بدأتْ مكائدُها، كانتْ والدتي تعيشُ عذابًا يوميًا، والزوجةُ الثانيةُ تأخذُ اهتمامَ أبي كلَّه، حتى انهارتْ أمي وماتتْ فجأةً من القهرِ"، مشيرةً إلى أن الخلافَ بدأ بين والديْها وهي بالصفِّ التاسعِ، عندما أرادَ والدُها طفلًا آخرَ رغم أن لديهم ثلاثَ بناتٍ وولديْنِ، والدتُها كانتْ تتألمُ مع تقدّمِها في العمرِ، وأخبرتْه أنها لم تعدْ قادرةً على الإنجابِ، فتعرّفَ على امرأةٍ أخرى من الجامعةِ، وكانتْ بدايةَ الانهيارِ.

تذكرتْ الأيامَ التي سبقتْ الحربَ الإسرائيليةَ على قطاعِ غزة في أكتوبرَ ٢٠٢٣ وصوتُها مفعمٌ بالحزنِ، عندما كانتْ ترى والدتَها تعيشُ فصولًا من العذابِ والألمِ مما تفعلهُ الزوجةُ الثانيةُ بها.

لم تتوقفْ معاناتُها بوفاةِ والدتِها، بل فتحتْ الحربُ فصلًا جديدًا من الظلمِ، فكانتْ تزيدُ قسوةَ زوجةِ أبيها، التي تشعلُ المشاكلَ، وتصبُّ العنفَ اللفظيَّ على سمرَ وأختِها خصوصًا، حيث لم تعرفْ للرحمةِ بابًا؛ وكانتْ تعتبرُهم عبئًا، وتتعمدُ إذلالَهم، وتقولُ لهم مرارًا: "الله يقرفكم.. أنا بقرف منكم، وما بدي أطبخلكم ولا أخدمكم".

لم تكنْ بمثابةِ الأمِّ الحنونةِ لهم بل كانتْ سببًا في مأساتِهم، وتسعى جاهدةً لسلبِ والدِهم منهم بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ، وتحاولُ إثارةَ المشاكلِ بينهم وبين والدِهم بشكلٍ أكبرَ حتى تستطيعَ جذبَه لطرفِها مهما حدثَ.

كانتْ تُجبرُ سمرَ وإخوتَها على كلِّ الأعمالِ المنزليةِ؛ الطهيِ على النارِ، نقلِ المياهِ، الغسيلِ، تنظيفِ البيتِ كلِّه، بينما تجلسُ هي على سريرِها بلا أيِّ جهدٍ، وكانتْ تُكرهُها على تنظيفِ الحمّامِ قبل استخدامِها الشخصيِّ له مراتٍ متعددةٍ في اليومِ، من أجل إذلالِها.

في أغسطسَ ٢٠٢٥، ومع تصاعدِ الحربِ والنزوحِ، ازدادتْ قسوةُ زوجةِ أبيها، حيثُ تستعيدُ أصعبَ موقفٍ، وهي ترتجفُ: "في أيامِ المجاعةِ، قدرنا نطبخ شوية عدس، لمساعدتنا على تخطّي حالة الجوع التي كنا نشعر بها، وأول ما شافتنا قاعدين ناكل، قلبت الطاولة وقالت: الله يقرفكم، وحرمتنا من الأكل" حينها لم تجدْ سمرُ سوى البكاءِ، فهي لم تعدْ قادرةً على تحملِ هذا القدرِ من الإهانةِ.

إساءةُ زوجةِ أبيها لم تكنْ مجردَ كلماتٍ، بل ندوبًا نفسيةً تركتْ أثرًا عميقًا، وكان الألمُ أكبرَ حين يتعلقُ الأمرُ بأخيها المريضِ بالسكريِّ، قائلةً: "أمي كانت تحاول تعتني فيه، لأنه كان محتاج اهتمام دائم، وزوجة أبوي كانت تستغل ضعفه لتزيد الضغط على أمي وعلى البيت كلّه" ومع تدهورِ صحةِ أمِّها، انفجرتْ الضغوطُ داخلَها، وابتعدتْ عن الجميعِ مرهقةً.

بقيتْ الوجبةُ الأخيرةُ التي أعدّتْها لهم والدتُها قبيلَ وفاتِها محفورةً في ذاكرةِ سمرَ: "فقدْناها فجأةً، شعرْنا وكأن الأرضَ اهتزّتْ تحت أقدامِنا، كانتْ صدمةً كبيرةً"، بعد رحيلِ أمِّها لم تجدْ ملجأً تشكو إليهِ سوى جدِّها وجدّتِها المسنَّيْنِ، ولم تكنْ تعرفُ شيئًا عن المؤسساتِ القانونيةِ أو النسويةِ التي قد تساعدُها؛ كي تستطيعَ تخطّي الضغطِ النفسيِّ، فالعالمُ بالنسبةِ لها كان أوسعَ من طاقَتِها، وأضيقَ من أن تجدَ فيه أحدًا يسمعُها.

ورغم كلِّ هذا الألمِ، تقفُ سمرُ اليومَ بمحاولةٍ صامتةٍ لبدءِ حياةٍ جديدةٍ، وبملامحَ بريئةٍ وابتسامةٍ حزينةٍ، تسخّرُ طاقَتَها لرعايةِ إخوتِها، تحاولُ سدَّ الفراغِ الكبيرِ الذي تركتْه والدتُها، ومواجهةَ العنفِ اللفظيِّ الذي سرقَ منها ثقتَها بنفسِها، ومع ذلك لا يزالُ قلبُها يحملُ ما لا يُقالُ، وتبقى ذكرياتُ أمِّها الراحلةِ هي الضوءَ الوحيدَ الذي يرافقُها في هذا الظلامِ.

لتحميل تطبيق أمل للوصول إلى الخدمات

خط الإرشاد والمساندة المجاني
1800 333 666
لاستقبال التغذية الراجعة والشكاوي
Complain@wac.org.ps